

الوافي في الوفيات

يا من هجرت فما تُبالي ... هل ترجع دولة الوصال .
ما أطمعُ يا عذابَ قلبي ... أن ينعمَ في هواك بالي .
الطرفُ كما عهدتُ - باكٍ ... والجسمُ كما تراه بالي .
ما ضرَّكَ أن تعلَّـليني ... في الوصلِ بموعدٍ مُحال .
أهـواكِ وأنتِ حَظُّـي غيري ... يا قاتلتني فما احتيالي .

وكانت لابن القطان مع الحيص بيص وقائع وله فيه أهاجـيٌ خرج الحيص بيص ليلةً من دار الوزير شرف الدين ابي الحسن علي بن طرادِ الزينبي فنجح عليه جـرُوكِ كلبٍ وكان متقلداً سيفاً فوكزه بعقب السيف فمات فبلغ ذلك ابن الفضل المذكور فنظم أبياتاً وكتبها في ورقة وعلقها في عنق كلبه لها أجرٍ ورتب معها من طاردِها وأولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة فأخذتِ الورقة من عنقها وعرضت على الوزير فإذا هي :
يا أهل بغداد إنَّ الحيصَ بيصَ أتى ... بفعله أكسبته الخزي في البلد .
هو الجبانُ الذي أبدى تشاجُوعَه ... على جُرَيِّ ضعيف البطش والجلاد .
وليس في يده مالٌ يديه به ... ولم يكن ببواءٍ عنه في القواد .
فأنشدت جعدةٌ مـن بعدِ ما احتسبت ... دمَ الأُبلق عند الواحد الصمد .
تقول للنفس تأساءً وتـعزيةً ... إحدى يدَيَّ أصابتنى ولم تُرد .
كـلاهما خـلفُ من فـقدِ صاحبه ... هذا أخي حين أَدعوه وذا وُلدي .
وهذان البيتان تضمينٌ من أبيات الحماسة وحضر الحيص بيص ليلةً عند الوزير في شهر رمضان على السماط فأخذ ابن الفضل قِطاة مشوية وقدمها إلى الحيص بيص فقال الحيص بيص للوزير : يا مولانا هذا الرجل يؤذيني فقال الوزير : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يشير إلى قول الشاعر :

تـمـيمٌ بـطرفِ اللؤمِ أهدى من القطا ... ولـو سـلـكـت سـبـيل المكارم ضللت .
وكان الحيص بيص تميمياً ودخل ابن الفضل يوماً على الوزير المذكور وعنده الحيص بيص فقال : قد عملتُ بيتين لا يمكن أن يُعمل لهما ثالثٌ فقال الوزير : وما هما ؟ فأنشده :
زار الخيالُ بخيلاً مـثلَ مـرسله ... فما شـفائـيَ منه الضـمُّ والقـبـلُ .
ما زارني قـطُّ إلا كي يوافقني ... على الخيال فينفيه ويرتحل .
فالتفت الوزير إلى الحيص بيص وقال : ما تقول في دعواه ؟ فقال : إن أعادهما سمع الوزير لهما ثالثاً فقال الوزير : أعدهما فأعادهما فوقف الحيص بيص لـحـيطةً ثم قال :

وما درى أن نومي حيلةٌ نُصِبت ... لِطَيفِهِ حينَ أَعيا اليَقَظَةَ الحَيدَلُ .
فاستحسن الوزير منه ذلك وهجا ابن الفضل قاضي القضاة جلال الدين الزينبي بقصيدة كافية
فسير إليه أحد الغلمان فأحضره وصفعه وحبسه فطال حَبَسُهُ فكتب إلى مجد الدين بن صاحب
أستاذ دار الخليفة :

إليك أطلُّ مجدَ الدين أشكو ... بلاءٌ حَلَّ لستُ له مُطِيقًا .
وقوما بلاَّغوا عذبي مُحالًا ... إلى قاضي القضاة الندب شيقا .
فأحضرني باب الحُكم خَصْمٌ ... غليظٌ جرَّني كُمًّا وزريقا .
وأخفق نعلَهُ بالصَّفعِ رأسي ... إلى أن أوجس القلبَ الخَفوقا .
على الخصم الأداءِ وقد صفَعنا ... إلى أن ما تهدَّينا الطريقا .
فيا مولاي هَبْ ذا الإفكَ حقا ... أيجَسُ بعد ما استوفى الحقوقا .
فأطلقه من الحبس فقال :

عند الذي طَرَّفَ بي أنه ... قد غَصَّ من قَدري وآذاني .
والجيسُ ما غير لي خاطرًا ... والصَّفعُ ما لَيَّسَ آذاني